نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

سلسلة الذين أضاءوا الدَّربَ ٦

أَيُّهَا الطِفْلُ العَرَبِيُّ لكَ تَارِيْخٌ عَرَبِيٌّ مُشَرِّفٌ، فَاقْرَأْ، وَتَعَلَّمْ، واعْمَلْ.

أبو العروضِ والنّحو العربيّ

الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديّ

بقلم: د. سناء شعلان

رسم: عاصف نصري





الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديّ
"أبو العروضِ والنّحو العربيّ"

د. سناء شعلان

عينان تسألان

وُلدَ الطّفلُ النّبيهُ (الذّكيُّ) الخليلُ بنُ أحمدَ عَمرو بن تميمٍ الفراهيديّ الأزديّ اليحمديّ في عُمَان، وقيلَ في البصرةِ (مدينةٍ في العراقِ) في عام ١٠٠ هجري، وقيل إنّ أباهُ أحمدَ كانَ أوّلَ مَنْ سمّي باسمِ أحمدَ بعدَ رسولِ اللّهِ ﷺ.

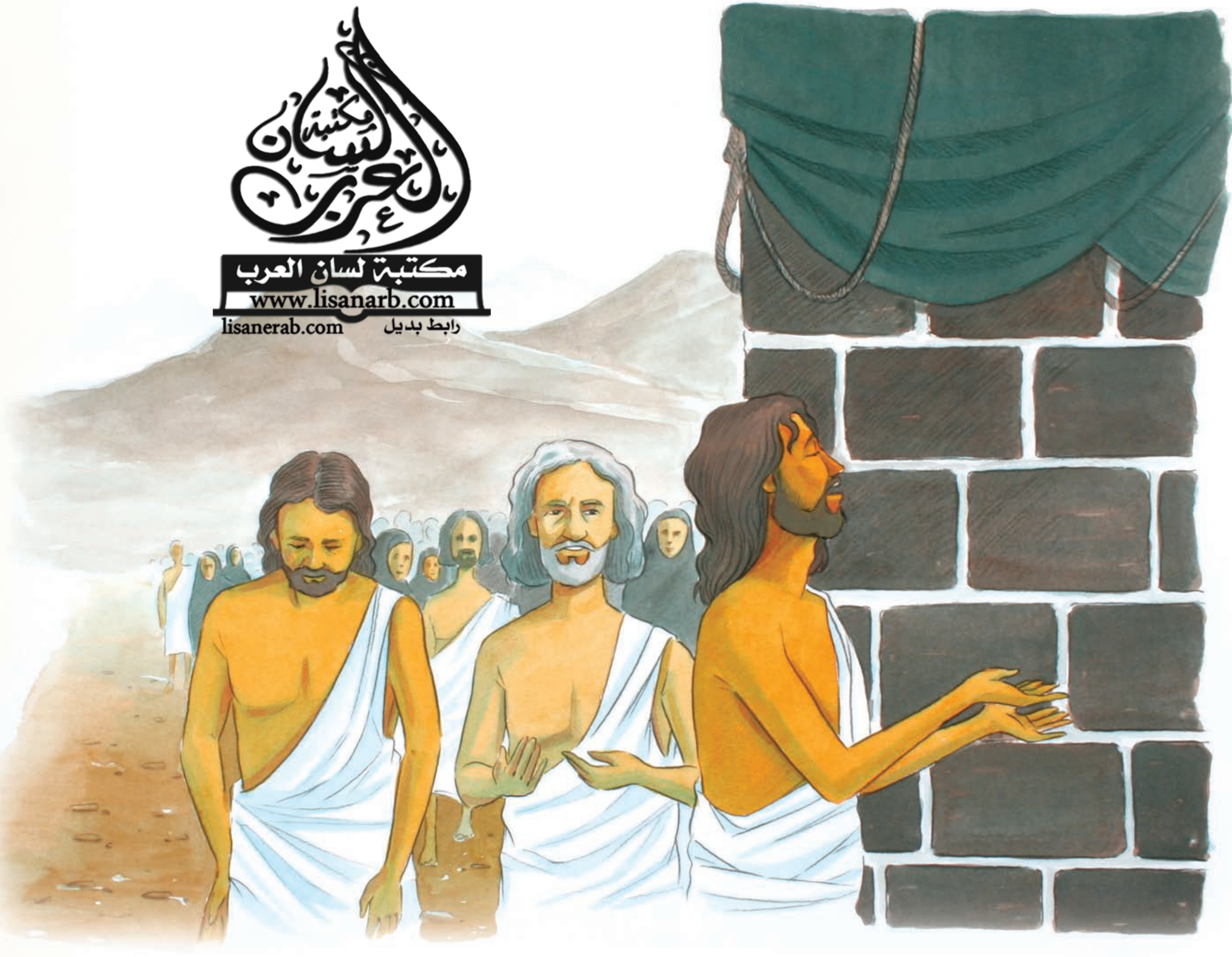
وسرعانَ ما انتقلَ الخليلُ إلى مدينةِ البصرةِ، وهي عندئذٍ (في ذلكَ الوقتِ) عاصمةُ النّحو العربيّ (علمٍ يعرفُ بِهِ أحوالُ أواخرِ الكلامِ إعراباً وبناءً)، وقِبْلَةُ الكثيرِ من أئمةِ (علماءِ) اللّغةِ العربيةِ وعلماءِ التّفسير والحديثِ، وموئلُ (مُستقرُّ) طالبي العلمِ، ومسكنُ الكثيرِ من فصحاءِ العربِ وأدبائِها.





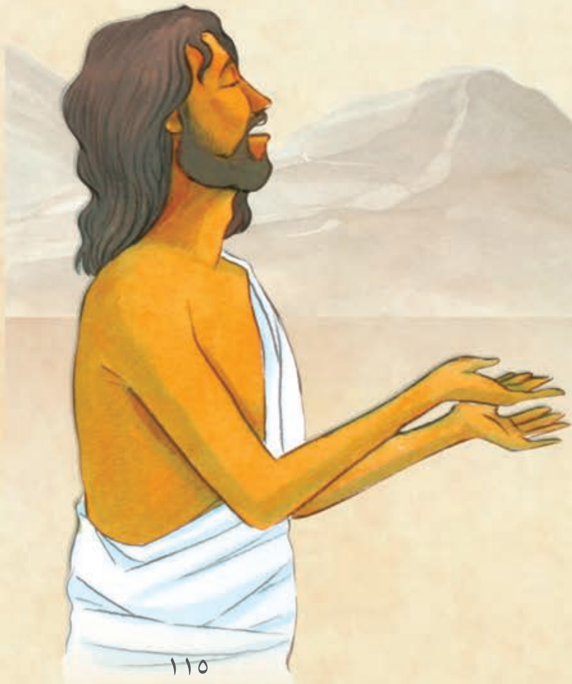
وفي هذهِ البيئةِ الخصبةِ بالعلمِ، وفي حضنِ الدّولةِ الإسلاميّةِ الفتيّةِ (الشّابّةِ) تفتّحتْ عينا الخليلِ بنِ أحمدَ على العلمِ الذي تولّعَ بِهِ (أحبَّهُ وتعلّقَ بِهِ)، ووهبَهُ كلَّ وقتِهِ واهتمامِهِ وحياتِهِ، وقدْ خصَّ اللّه (فضّلَهُ وأعطاهُ) الصّبيَّ الخليلَ بقوةِ الملاحظةِ، وبذكاءٍ شديدٍ يشعُّ في عينيهِ اللتينِ تتوقّفانِ عندَ كلِّ شيءٍ، وتتأمّلانِهِ طويلاً، وتسألانِ عَنهُ، ثم تتعمقّانِ في التّفكيرِ فيهِ، فلا تقفانِ عندَ ظاهرِ الأشياءِ بل تغوصانِ في العمقِ، وتبحثانِ عن فكِّ الألغازِ والأسرارِ، وتصلانِ إلى حقيقةِ الأشياءِ، فكانَ بذلكَ نموذجَ العبقريةِ التي تفهمُ وتدركُ ثم لا تكتفي بذلكَ، بل تسعى إلى الوصولِ إلى نتائجَ وقواعدَ تساعدُ كلَّ طالبِ علمٍ، بل إنهُ كانَ يتمنىّ أن يساعدَ بعلمِهِ كلَّ إنسانٍ في الدّنيا.

وكانَ الخليلُ عاشقاً للغتهِ العربيّةِ ولدينهِ الإسلامِ، وكانتْ رغبتُهُ الجامحةُ في خدمةِ الإسلامِ والمسلمين هي السّببَ في اجتهادِهِ في طلبِ العلمِ وتعلّمِ العربيّةِ، إذْ كانَ غيوراً عليها، فهي لُغَةُ القرآنِ، ولابدَّ (يجبُ) لمنْ أرادَ أن يفهَمَ الدّينَ الإسلاميّ أن يتقنَ اللّغةَ العربيّةَ على خيرِ وجهٍ، ولذلكَ فقدْ كدَّ وتعبَ واجتهدَ، ووصلَ ليلَهُ بنهارِهِ حتى تفوّقَ في دراسةِ اللغّةِ العربيّةِ، وفهمِ معانيها، وأدركَ (عَرفَ) فنونَها وآدابَها، وغدا (أصبح) من أهمِ علماءِ المدرسةِ البصريّةِ.



بعد أنْ سعى (سارَ ومشى) في دروبِ العلمِ، وحضَرَ حلقةَ القارئِ عاصم بنِ أبي النّجودِ في الكوفةِ، وأخذَ في مكة عن قارئها ابنِ كثيرٍ، ثم تعلّم اللّغةِ العربيّةِ منَ الأعرابِ (البدو من أهلِ الصّحراءِ) أهلِ الفصاحةِ والبلاغةِ في الحجازِ ونجدٍ وتهامةَ، كما أنّهُ تتلمذَ على أيدي أئمةِ اللّغةِ العربيّةِ في عصرِهِ أمثال أبي عمرو بنِ العلاءِ، وقدْ شهدَ لَهُ جميعُ شيوخِهِ (معلميهِ) بالذّكاءِ والتّفوقِ، وعنهُ أخذَ النّحوَ واللّغةَ جيلٌ مِنْ أعلامِ (أشهرِ علماءِ) النّحوِ أمثال سيبويهِ والنّضر بن شميل وهارون بن موسى النّحويّ، ووهب بن جرير والأصمعيّ والكسائيّ وعلي بن نصر الجهضيّ.

الدّعاءُ المستجابُ



وقدْ حجَّ الخليلُ بنُ أحمدَ يوماً، فتعلّقَ بأستارِ الكعبةِ، وسألَ اللّه مَتضرّعاً (ابتهلَ وطلبَ مِنْهُ) أنْ يهبُه (يعطيهُ) علماً لم يسبقه إليه أحدٌ، ولا يُؤخذُ إلا عنْهُ فيكون لَهُ خيرُ ذلكَ العلمِ وأجرُهُ، فمنَّ (أنعمَ عليه نعمةً طيبةً) اللّه عليهِ، فما كادَ يعودُ إلى بيتِهِ، حتى اعتكفَ فيهِ (أقامَ ولَزِمَ)، إلى أنْ خرجَ على النّاسِ وقدْ وضعَ علمَ العَرُوضِ كاملاً (علمِ موازين الشِّعرِ)، وكانَ



ذلكَ بعدَ أنَّ مرَّ يوماً بسوقِ النّحاسين (مفردها نحّاسُ، وهو مَنْ يصنعُ النّحاسِ ويبيعُهُ) فسمعَ وقع مطرقةٍ على طستٍ (آنيةٍ من النّحاسِ) فلمعتْ في ذهنِهِ فكرةُ العَرُوض، وهذا العلمُ يحتاجُ إلى معرفةٍ بالإيقاعِ والنّغمِ، وكانَ للخليلِ علمٌ كبيرٌ بذلكَ، وقد ظلَّ حَبيسَ بيتِهِ ذاهلاً عَنْ نفسِهِ(ناسياً لَهَا) يرفعُ أصابعَهُ أو يحرّكهُا ببطءٍ لضبطِ أوزانِ ما يتمتمُ (يقولُ كلاماً غيرَ مفهومٍ) بِهِ مِنْ الشِّعرِ، وقدْ استطاعَ أنْ يضبطَ أوزانَ خمسةَ عشرَ بحراً يجري عليها نظمُ الشِّعرِ حتى الآن، وبهذهِ البُحورِ ميّزَ الخليلُ الشِّعرَ عَنْ غيرِهِ من فنونِ الكلامِ، وبذلكَ كانَ لَهُ الفضلُ على اللّغةِ العربيّةِ وعلى الشِّعر، إذْ حفظَهُ بذلكَ من الاختلالِ والضّياعِ.





ويقالُ إنّ الخليلَ الذي كانَ يُكنّى بأبي عبدِ الرّحمنِ كانَ لَهُ ولدٌ جاهلٌ، وقدْ دخلَ يوماً على والدِهِ، فوجدَهُ يُقطّعُ أبياتَ شعرٍ بأوزانِ العَرُوض، فخرج إلى النّاسِ صارخاً: " إنّ أبي قد جُنَّ " ، فدخلَ النّاسُ على الخليلِ، وأخبروهُ بما قالَ ابنُهُ، فقالَ الخليلُ مخاطباً ابنَهُ الجاهلَ:

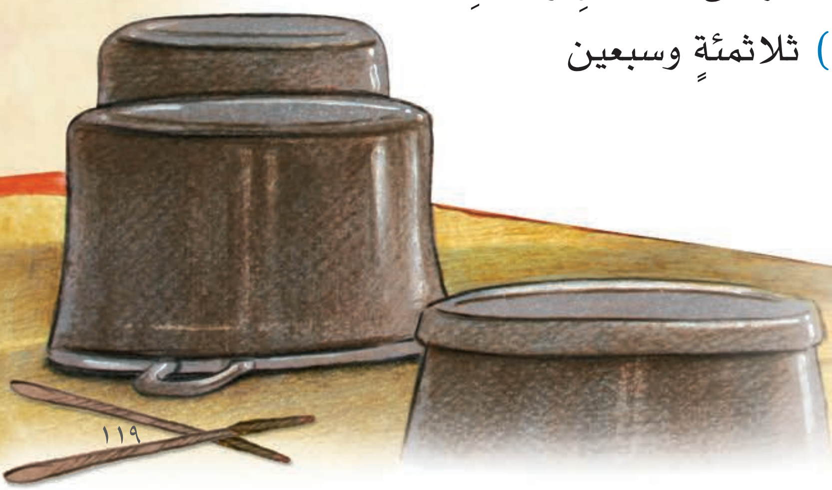
"لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذرتني | لو كنتَ تعلمُ ما تقولَ عَذَلتُكا
لـكن جهـلتَ مقالتي فعذلـتني | وعلمتُ أنّكَ جاهلٌ فَعَذَرْتُكا"

وقد أقبلَ طلبةُ العلمِ على شيخهِم العبقريّ الخليلِ بنِ أحمدَ؛ ليتعلّموا على يديهِ العلمَ الجديدَ الذي ابتكرَهُ، فكانوا يلازمونه (يرافقونَهُ ولا يفارقونَهُ) ، فإنْ رأى الخليلُ خيراً فيهم، واستعداداً عندَهُم لتعلّمِ العَرُوض استبقاهُم، وإنْ رأى خلافَ (عكسَ) ذلكَ صرفَهُم بأدبٍ، ونصحَهُم بتعلّمِ علمٍ آخر.

ثروةٌ من العلمِ

وكانَ سيبويهِ تلميذُ الخليلِ الأثيرِ (المفضّلِ عندَهُ) ممن أخذوا الكثيرَ من عظمِ علمِهِ في النّمو بعد أن لازمَهُ طويلاً، وعنْهُ نقلَ الكثيرَ من المسائلِ والآراءِ في كتابِهِ الشّهير (الكتابِ) في نحو (ما يقاربِ) ثلاثمئةٍ وسبعين موضعاً مُعترفاً لَهُ بوافرِ علمِهِ، وعظيمِ فضلِهِ.

وتفتقتْ (أنتجَتْ) عبقريّةُ الخليلِ بنِ أحمدَ من جديدٍ عن إبداعٍ عملاقٍ، وإنجازٍ باهرٍ يحتاجُ إلى جماعاتٍ من العلماءِ كي





ينجزوا مثله، فألّفَ أوّلَ معجمٍ في اللّغةِ العربيّةِ، وكانَ قَدْ أملاهُ (قالَ لَهُ فكتبَ عنْهُ) على طالبِهِ اللّيثِ بنِ المظفّرِ، وكانَ هَدفُ الخليلِ منْ وَضْعِ معجمِهِ أن يضبطَ اللّغةَ ويحصرَ (يحدّدَ ويعدّدَ) كلامَهَا. وقد بدأ الخليلُ بترتيبِ الحروفِ ثم بتقليبِ اللّفظةِ على كلِّ أوجهِهَا، وقدْ رتّبَ الحروفَ فيهِ وَفْقَ مخارجِهَا، فكانَ ترتيبُهُ كالآتي:

ع ح هـ، خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ر، ط د ت، ظ ث ذ، ف ب م، و ا ى، الهمزة، وأسماهُ (العينَ)؛ لأنّ العينَ هو الحرفُ الأوّلُ في ترتيبِ الحروفِ في معجمِهِ؛ وسمّى مجموعات الحروفِ المرتّبةِ على التوالي (التّرتيبِ) حلقيّةً، ولهويةً، وهجريّةً، وأسليّةً، ونطعيّةً، ولثويّةً، وذلقيّةً، وشفويّةً، وهوائيّةً. وقَدْ توقّفَ في معجمِهِ عندَ كثيرٍ من القضايا النّحويّةِ والصّرفيّةِ، وذكرَ فيهِ شواهدَ نثريّةٍ وشعريّةٍ وقرآنيّةٍ.

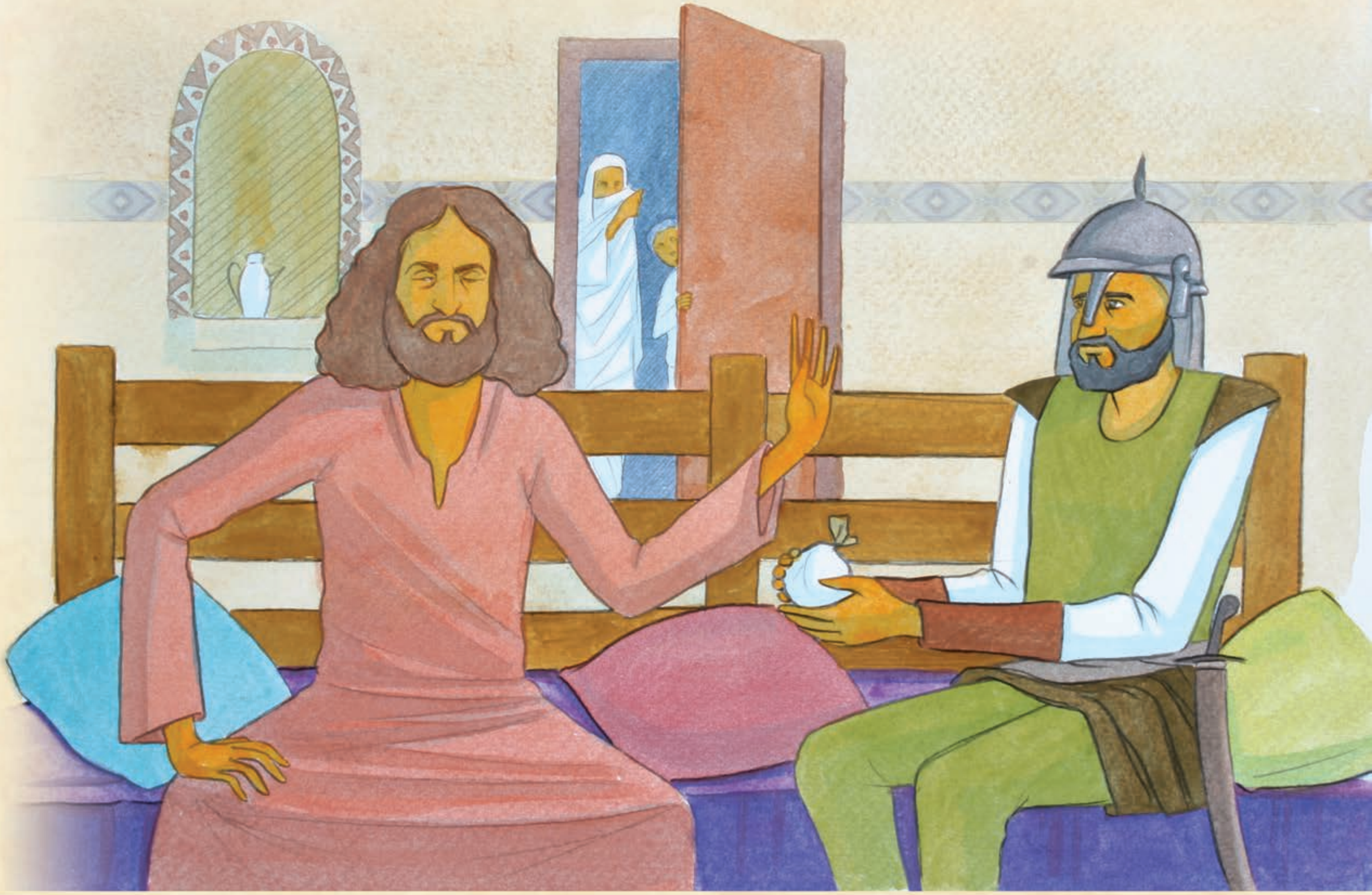
وكانَ الخليلُ بنُ أحمدَ أوّلَ مَنْ حصرَ أشعارَ العربِ. كما لَهُ كثيرٌ من المصّنفاتِ (الكُتب) مِنهَا: كتابُ العَروضِ، كتابُ الشّواهدِ، كتابُ النّغمِ، كتابُ العواملِ، كتابُ معاني الحروفِ.

ولمّا شاعَ الخطأُ في القراءةِ والكلامِ عندَ العربِ بسببِ اختلاطهمُ بغيرِهم من الشّعوبِ الأخرى لا سيما (بشكلٍ خاصٍ) الذي أسلموا حديثاً، وجدَ الخليلُ بنُ أحمدَ حلاً ذكيّاً وناجحاً (نافعاً) لهذهِ المشكلةِ، بعد أنْ اخترعَ تلميذُهُ أبو الأسودِ الدّؤليّ تنقيطَ الإعجامِ (استخدام النّقاطِ بشكلٍ مخصوصٍ للتمييز بين الحروفِ المتشابهةِ كالجيمِ والحاءِ والخاءِ)، وذلك بأنَ اخترعَ الخليلُ رسمَ الحركاتِ، فأوجدَ الشدّةَ والضّمةَ والسّكونَ والهمزاتِ وهمزةَ الوصلِ، وبقي هذا النّظامُ الذي اخترعَهُ معمولاً بِهِ حتى الآن.

العالمُ الفقيرُ الزّاهدُ

عاشَ الخليلُ حياتَهُ فقيراً معدماً (لا يملكُ شيئاً) زاهداً بالمالِ، أشعثَ الشَّعرِ (غيرَ مصفّفٍ) ممزّقَ الملابسِ والنّعلِ (الحذاءِ) غيرَ مشهورٍ لا يعرفُهُ النّاسُ، إلا إنّهُ لم يكنْ يشكو من فقرِهِ، وكانَ مُقبلاً على العلمِ، على الرّغمِ من أنّهُ كانَ يعيشُ في خُصٍّ (بيتٍ من شجرٍ أو قصبٍ) لَهُ في البصرةِ في بستانٍ كان قَدَ ورثَهُ عن والدِهِ، لا يملكُ فلسين، وتلامذتُهُ يكسبون المالَ الكثيرَ بعلمِهِ، وما كانَ يبالي (يهتمُّ) بذلكَ، فقدْ كانَ عفيفاً زاهداً بالدّنيا، يغزو (يجاهدُ) عاماً، ويحجُّ عاماً حتى تُوفي.

وقدْ سعى الملوكُ إلى الخليلِ يطلبون رضاهُ، ويعرضون عليهِ عطاءَهُم، فكانَ يرفضُ ذلكَ، ويكتفي بالقليلِ، حتى إنّهُ رفضَ أن يكون معلماً ومربيّاً لابنِ سليمانَ بنِ حبيبٍ بنِ المهلّبِ بنِ أبي صفرةِ الأزديّ، وكانَ والي (حاكمَ) فارس والأهوازِ، فقطعَ عنهُ سليمانُ ما كانَ يعطيه لَهُ، فأنشدَ الخليلُ:



إنّ الذي شَقَّ فمي ضـامِنٌ … للـرِّزقِ حـتى يَتَــوَفّـاني

حَرَمتَنَني خيراً قليلاً فمـا … زادك في مالكَ حرماني

فبلغَ سليمانَ قولُ الخليلِ، فخجلَ، وندمَ، وأرسلَ كتابَ (رسالةَ) اعتذارٍ إليهِ، وضاعفَ لَهُ الرّاتبَ.

العالمُ الحكيمُ

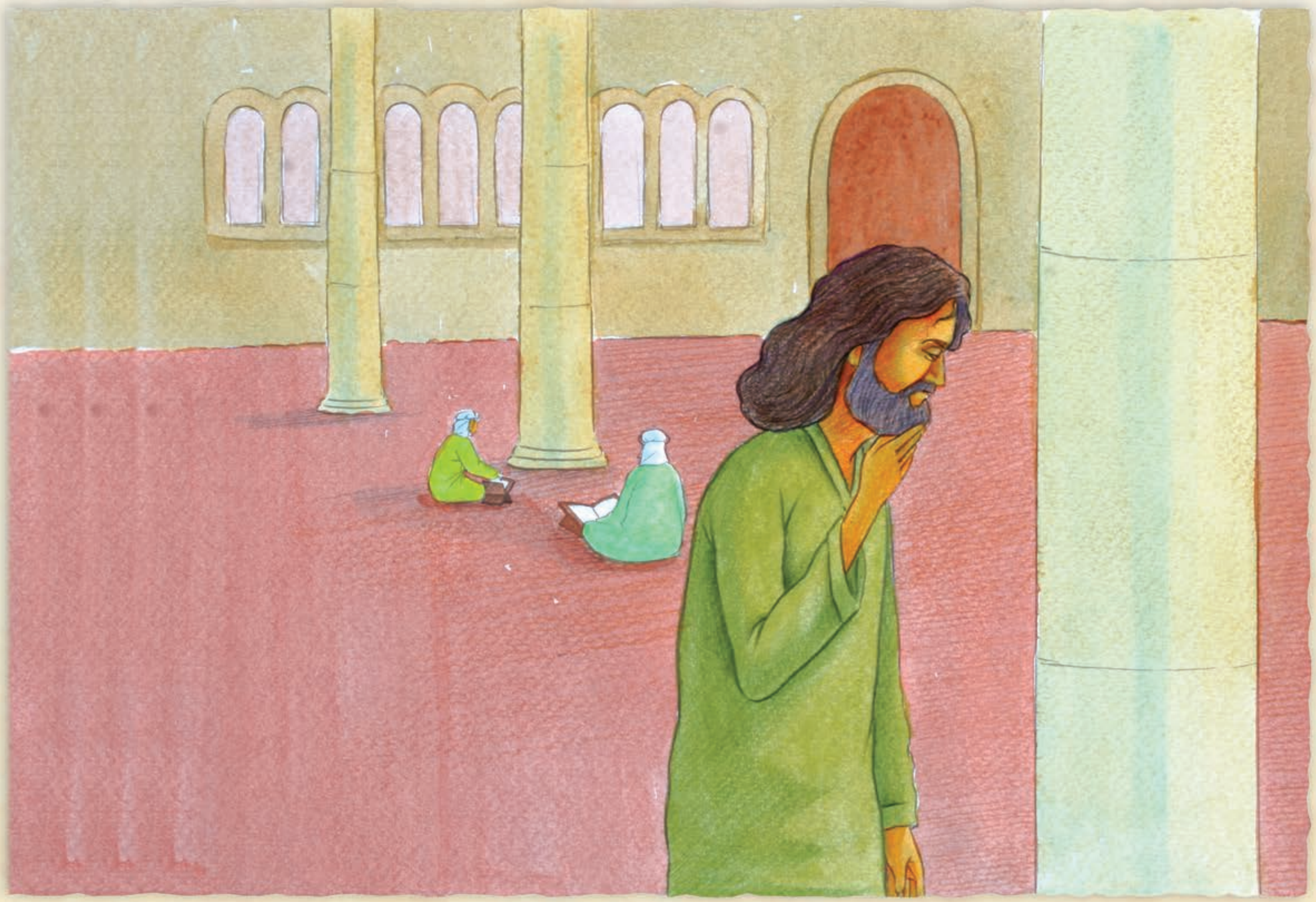
وقد وهبَ اللّه الخليلَ شمائلَ (صفاتٍ وأخلاقاً) كريمةً، فقدْ كانَ رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً (يحترمُهُ النّاسُ) حكيماً، وكانَ لَهُ الكثيرُ من الحِكَمِ والأشعار التي تدلُّ على خبرتِهِ بالنّاسِ والحياةِ، وكثيراً ما كانَ يتغنّى بقولِ الشّاعر الأخطلِ:

وإذا افتَقَرْتَ إلى الذّخائرِ لم تجِدْ … ذُخْراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ



ومِنْ أقوالِ الخليلِ المشهورةِ:

"إنْ لَمْ تكنْ هذهِ الطّائفةُ –يعني أهلَ العلمِ– أولياءَ للّهِ فليسَ للّهِ تعالى وليٌّ". وقوله: "إذا خرجتُ من منزلي لقيتُ أحدَ ثلاثةٍ؛ إمّا رجلاً أعلمُ بشيءٍ مني، فذلكَ يومُ فائدةٍ، أو رجلاً مثلي، فذلكَ مذاكرةٌ، أو رجلاً دوني، فذلكَ يومُ ثوابٍ"، وكانَ يقولُ: "الزّاهدُ مَنْ لم يطلبِ المفقودَ حتى يفقدَ الموجودَ". وكانَ يقولُ كذلكَ: "إذا أردتَ أن تعرفَ خطأَ معلّمَكَ فجالسْ غيرَهُ".



وعلى الرّغم من عبقريّةِ الخليلِ إلاّ أنّهُ كانَ غايةً في التّواضعِ، فإذا أفادَ إنساناً شيئاً لم يشعرهُ بأنّه أفادَهُ، وإنْ استفادَ مِنْ أحدٍ شيئاً أجزلَ لَهُ الشّكرَ، وأشعرَهُ بأنّهُ استفادَ منهُ. وهذهِ الأخلاقُ الكريمةُ جعلتْ علماءَ عصرِهِ يُشيدون بِهِ (يمدحونهُ)، وفي ذلكَ يقولُ النّضرُ بنُ شميلٍ: "ما رأى الراؤون مثلَ الخليلِ، ولا رأى الخليلُ مثلَ نفسِهِ"، وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ: " مَنْ أحبَّ أنْ ينظرَ إلى رجلٍ من ذهبٍ ومسكٍ فلينظرْ إلى

الخليلِ بنِ أحمدَ " . في حينَ قالَ النُّضرُ بنُ شميلٍ في معلّمِهِ الخليلِ: "أكلت الدّنيا بعلم الخليلِ وكتبِهِ" ،وقال: "ما رأيتُ رجلاً أعلمَ بالسّنّةِ بعدَ ابنِ عونٍ منَ الخليلِ" .وقالَ محمدٌ بنُ سلّام: "لم يكن للعربِ بعدَ الصّحابةِ أذكى من الخليلِ بنِ أحمدَ ولا أجمع" .

البحثُ حتى النّهايةِ

كانَ البحثُ عن الحقيقةِ والتفاني (العملِ بإخلاصٍ) في تحصيلِ العلمِ هو هاجسُ (محرّكُ ومحورُ اهتمامِ) الخليلِ حتى آخرِ لحظةٍ من حياتِهِ، بل كانَ سبباً في موتِهِ، ففي سنةِ مئةٍ وسبعين هجري أو مئةٍ وخمسٍ وسبعين أو مئةٍ وستين للهجرةِ كانَ الخليلُ يسيرُ في المسجدِ منشغلاً بالتّفكيرِ في إيجاد طريقةٍ سهلةٍ للحسابِ، يستطيعُ أن يتقنَهَا الكبيرُ والصّغيرُ، وبينما هو مستغرقٌ في تفكيرِهِ، صدَمَتْهُ ساريةٌ (عامودٌ) فانصدعَ (انكسرَ) رأسُهُ، وانقلبَ على ظهرِهِ ميّتاً، لتنتهي بهذهِ الحادثةِ المحزنةِ حياةُ عبقريٍّ وهبَ حياتَهُ للعلمِ وللّغةِ العربيّةِ، فكانَ ابنَها البارَّ (المخلصَ لها المحسنَ إليها).

وقدْ تركَ الخليلُ للإنسانيّةِ ثروةً من العلمِ وتاريخاً مشرقاً لعالمٍ زاهدٍ عابدٍ،أخلصَ للهِ وللعلمِ،وترفّعَ عن لهو الدّنيا وعن معاصيهَا. وفي ذلكَ قالَ قبلَ موتِهِ بأيام: "واللهِ ما فعلتُ فعلاً قطُّ (أبداً) أخافُ على نفسي منْهُ،وما كانَ لي فضلُ فكرٍ صرفتُهُ على جهةٍ وددتُ أنّي كنتُ صرفتُهُ إلى غيرِهَا، وماعلمتُ أنّي كذبتُ متعمّداً قطُّ،وأرجو أن يغفرَ اللهُ لي التأويلَ (التّفسيرَ)".

لوّن معنا

